

اجتهادات باتجاه الطريق

الأدب المقاوم للظلم والاستغلال والطغيان والمناصر للبسطاء والفقراء والمقهورين ليس كثيراً في مصر. ولكن بعضه يُبدع في هذا المجال مثل مجموعة حمزة القناوى القصصية الصادرة حديثاً تحت عنوان «باتجاه الطريق». جاء إهداء هذه المجموعة (إلى البشر المُتعبين والفقراء .. ملح الأرض وزهورها) في محله. كما أتى التعبير عن عذابات نماذج من هؤلاء البشر قوياً يدل على أساس عميق بهم، وبلغة جميلة تليق بأديب تجلت موهبته في الشعر بالأساس.

ولذلك كان المبدع الكبير صنع الله إبراهيم دقيقاً عندما وصف هذه المجموعة بأنها تتسم بقوة التعبير ومتانة اللغة وعمق الإحساس. ولعل أهم ما يميز هذه المجموعة هو إجادة التعبير عن نماذج لشباب مطحونين لا تتحقق أحلامهم، وقد لا تترك لهم ظروفهم القاسية فرصة للحلم أصلاً. وهى تعبر، على هذا النحو، عن ملايين من شبابنا أغلقت السياسات «النيوليبرالية» بظلمها وانحيازها للأثرياء آفاق المستقبل أمامهم على مدى عقود، وما زالت. ورغم أن في كل قصص المجموعة نماذج مهمة، لا تسمح المساحة بأكثر من ثلاثة منها أولها الشاب الفقير والفتاة البائسة في القصة الرئيسية «باتجاه الطريق»⁰ فهما يدرسان صباحاً ويعملان مساءً في ظروف قاسية حاولا التغلب عليها عبر (البحث عن ثقب إبرة من الضياء تنفذ منه أحلامهما إلى التحقق). ولكن هذه الأحلام أُحبطت، ومعها علاقة الحب التي جمعتهما. وكان قناوى مبدعاً في وصفه الملئ

بالإحياءات لنهاية هذه العلاقة: (قالت بابتسامة منطفئة: إلى أين ستذهب)-
((إلى البحر) - (من أى طريق) - (من طريق المقبرة).

وتقدم قصتا «والبحر ليس بملاّن»، و«حقيبة ليست لأحد» نموذجين
للحب المسحوق فى طاحونة حياة قاسية لا ترحم الفقراء. فى الأولى
صورة قلمية بديعة لواقع مؤلم تكشف فى أقل من مائة سطر عن حالة
الشباب العاجز عن توفير أبسط مقومات الزواج، وانسحاق الحب تحت
وطأة هذا العجز. فقد تحول الشاب الى هيكل محنّط، ولم يجد فى جعبته
نكتة يقولها لحبيبته عندما طلبتها0 ولما ألحت (نظر لها وقال: مرة واحد
حب. وصمت برهة قبل أن يكمل .. طحنوه!) وفى الثانية شاب معدم وجد
فرصة لهجرة غير شرعية إلى فرنسا وعمل فى مطعم إلى أن التقى فتاة
أحست به فغرق فى حبها. ولكن رفض أهلها زواجهما حطّمه، أو بالأحرى
أعاده إلى حالة الحطام التى دفعته إلى الهرب من وطنه الذى لا يتسع
لأمثاله من الفقراء.